عنوان المقال:

" مصير المهاجر المتقاعد الجزائري بين ضروريات و حتميات وواقع معاش "

من إعداد : أ. شوايل شايلة شهرزاد

جامعة وهران 2

الملخص:

يعيش المهاجر الجزائري بفرنسا مثله مثل باقي المهاجرين من معاناة و مرارة البعد عن بلدهم الأصلي ، فهو يعيش في مؤسسات اي مراكز خصصت لإيوائه منذ بداية مشواره المهني .أما الآن فقد انتقل الى مرحلة التقاعد وهي مرحلة تختلف تماما على ما تعود عليه من نشاط يومي أثناء عمله.ترتب أيضا عنها وضعيات جديدة سواءً للمهاجر صحية كانت أم إجتماعية أو للمجتمع الفرنسي ، فقد وضعته أمام حتميات التعامل مع الوضع الجديد لهذا العامل المهاجر الذي أصبح الآن متقاعد يعاني من تداعيات الشيخوخة و بالتالي تغير احتياجاته بتغير أوضاعه ،وسنسلط الضوء من خلال ما سيأتي على هذه الوضعية.

كلمات مفتاحية :الشيوخ المهاجرين ، الاغتراب ،الهجرة ،السوناكوطرا ، الادوما ، مراكز ايواء العمال الاجانب

Résumé :

Les immigrés arrivés en France dans les années 1950-1970 ont entamé depuis plus de deux décennies une nouvelle étape dans leurs parcours de vie : le passage de la vie professionnelle à la retraite autrement dit de la vie active à l'inactive. Vivre seul est une contrainte que vivent les vieux immigrés retraités, résidants des foyers ils sont fragilisés sur tous les plans sociale, économique et par l'avancée en âge.

Mots clés :vieux émigrés ;immigration ; émigration ;Sonacotra ;Adoma ; les chibanis ;foyers de travailleurs.

Summary:

The immigrants made to France in years 1950-1970 have started for more than two decades a new stage in their courses of life: the passage of the professional life to the retirement in other words of the working life to the inactive one. To live alone is a constraint which the old reprocessed immigrants live, residents of the hearths they are weakened as regards the entire aspects social, economic and by the projection in age

Keywords: old immigrant; emigration, sonacotra; adoma; chibanis; migrant workers' home

المقدمة:

تنامت ظاهرة هجرة الجزائريين نحو أوروبا بصفة عامة و باتجاه فرنسا بصفة خاصة بعد النصف الثاني من القرن العشرين وبالتحديد بعد الحرب العالمية الثانية . إذ أصبحت دول أوروبا بعدما عرفت تهديما لنسيجها الصناعي وتخريبا لمنشآتها العمرانية و الإقتصادية من جراء الحرب العالمية الأولى تسعى إلى جلب اليد العاملة بأقل الأثمان من البلدان المتخلفة إقتصاديا وهذا من خلال الإغراءات التي استعملتها لتحفيز هذا المهاجر لأخذ القرار بالهجرة ، خاصة وأنه كان يعيش في مجتمعه الأصلي المستعمَر أوضاعا إقتصادية وإجتماعية متدنيةً .

ظهرت العديد من الأبحاث والدراسات تناولت موضوع الهجرة نحو فرنسا وحقائقها ومشاكلها السياسية والإجتماعية –من قوانين وترتيبات وأعداد الخ – لكن ما يثير الانتباه أن الكثير يحاول معرفة الأسباب المؤثرة في تنامي هذه الظاهرة بشتى أشكالها ولكن لم يتم التركيز على دراسة نتائج من مخلفات أو عواقب التي ترتبت عن هذا القرار بالهجرة الذي اتخذه هذا المهاجر في سن معين . وأقصد هنا تلك الهجرة التي كانت ابتداء من فترة الستينات التي أقدم عليها الآلاف من الجزائريين وكذلك المغربيين عامة حيث قاموا خلالها بالنهوض بالنسيج

العمراني والصناعي يمارسون الأعمال الكادحة وشاقة في خدمة الصناعة والبناءات و الاقتصاد الفرنسي سواء أكان هذا العامل مصحوبا بأسرته التي جلبها إلى فرنسا –بعد صدور قانون يخول له ذلك – أو مقيما في مكان منفرد لوحده كما سنراه ، وهذه الوضعية هي التي سنتناولها هنا . حيث قضى فترة نشاطه كله وهو يبذل مجهوداته لإنجاز ما ينتظر منه ومرت السنون إلى أن بلغ هذا المهاجر سن التقاعد وأصبح منفصلا عن جو العمل والنشاط الذي كان منشغلا به طيلة حياته اليومية فهذه الوضعية الجديدة أي التقاعد جعلت المهاجر يدخل في حياة مختلفة منفصلة وبعيدة كل البعد عن الحياة العملية النشطة التي تعوّد عليها إذ تحوّل من عامل نشيط إلى شيخ متقاعد و سنتابع الاوضاع التي يعيشها هذا الاخير في مراكز الإيواء التي كانت مأواه كعامل وأصبح الآن مسكنه الوحيد الذي يلجأ اليه طول الوقت .

وصف مراكز إيواء العمال الأجانب:

إذا أردنا إعطاء وصف فعلي لهذه المراكز FTM (Foyers de travailleurs Migrants) هي أماكن للعيش أين الغرفة إن لم تكن جماعية هي غرف فردية صغيرة مساحتها تقدر حاليا بـ7,5متر مربع وقديما كانت مساحتها تقدر بـ4,5متر مربع وتعتبر المكان الوحيد الذي يتمتع فيه المهاجر المسن بخصوصية ويوجد مراكز أخرى أين لا يمكن للمهاجر أن يخلو بنفسه بالتالي لا يتمتع بأي خصوصية حتى ولو لدقائق إذ لا يمكنه أن يتخذ لنفسه مكاناً مخصصاً له لأنه يتشارك مع عدد من المهاجرين هذا الفضاء. فهي قاعة جماعية كبيرة فيها من ستة (06) إلى اثني عشرة (12) سريرا أو أكثر ويتشاركون فضاءات أخرى مثل : المراحيض والحمامات والمطبخ...إلخ. في هذه الحالات نجد المهاجر في بعض الأحيان يلصق بالدبابيس بعض الصور الخاصة به وبأسرته بالقرب من سريره فأشياؤه وأمتعته إما مرتبة بخزانة أو باقية في حقيبته. هذه الوضعيات الحياتية والظروف الصعبة والمزرية في المراكز لها صلة وثيقة بسياسة التسيير الأولى لهذه المراكز أو بالأحرى نتيجة لتلك السياسة فهي مستوحاة من قواعد عسكرية أو رهبانية فأوائل المسيرين لهذه المراكز إما عسكريون سابقون أو رهبانٌ سابقون فرضوا على المهاجر أن يعيش وحيدا إذنجد في عدة كتابات يعبرون عن هذه الأوضاع المزرية بعبارة "الجيل المضحّى به".

جدير بالذكر أن مراكز الإيواء ليست الوحيدة التي تعرف أوضاع سكنية غير مريحة و هشة فأشكال الإسكان الأخرى في الحظيرة أيضا تتشابه معها في ذلك وهو ما توضحه المعطيات التعداد أو الإحصاء لعام 1999 في الجدول (1) الذي يقارن بين رفاهية المسكن للمهاجر الذي يعيش لوحده في مختلف أشكال الإسكان في الحظيرة السكنية لفرنسا وهو كالآتي:

	Hommes immigrés isolés		Hommes vivant seuls en France	Femmes immigrées vivant seules
	Parc diffuse	Parc classique	Tous	Logements
Logement d'une seule pièce	68%	29%	21%	18%
W.C à l'extérieur	29%	7%	6%	8%

Ni baignoire, ni douche	19%	5%	5%	5%

[جدول 1 Source: Insee EHF et RGP 1999, exploitation Gov cham : homes immigré isolés. (Remi Galou, 2005: 114).

هذا الجدول يعبر فعلا عن ملاحظاتي الميدانية على أرض الواقع خلال زياراتي للمهاجرين بفرنسا فالمهاجر الذي يعيش لوحده سواءًا في مراكز الإيواء أو في الحظيرة السكنية بأشكالها يعيش أوضاعاً متشابهة من حيث مساحة الغرفة وهو ما تعبر عنه نسبة 68 % من المهاجرين الساكنين بغرفة واحدة و مراحيض مشتركة بينهم أي خارج الغرف و انعدام الحمامات وهي صورة معبرة عن الوضعية الغير مريحة التي يعيشها المهاجر الذي يجد صعوبة حتى لقضاء حاجاته الطبيعية ،ويرجع هذا بالدرجة الاولى الى سياسة الإسكان التي اعتمدت منذ البداية فكانت الهدف منها إسكان المهاجر بصفة مؤقتة و لم يتم تعديل هذه النظرة حتى بعد مرور فترة لا تقل عن أربعين سنة.

الوضعية الاجتماعية للمهاجر المتقاعد في مراكز الايواء :

مركز الإيواء شكل من أشكال الإسكان ،يتميز بخصوصيات من بينها خصوصية سياسة الهجرة بفرنسا خاصة بين الستينات والسبعينات ، فنتائج هذه الهجرة واضحة الآن بشكل واضح وجلي ، فهي مساكن جيل من المهاجرين هم الآن يعيشون مرحلة الشيخوخة بكل تداعياتها. فكيف يمكن مرافقة المهاجر عند إيداعه لطلب التقاعد ؟ كيف يحصل على كامل حقوقه الإجتماعية ؟ ،وكيف يمكن إبقاؤه في إطار سكني وحياة إجتماعية لائقة دون تغيير مقر سكنه المعتاد عليه والذي لم يكن له فيه خيار ؟ كيف نطبق على هذه الشريحة من الناس سياسة إبقائهم في السكن مع العلم أن معظمهم شيوخ ؟ هل يمكن فعلا تطوير هذه الوضعيات في إطار مشروع مشترك ؟ هذه اسئلة تداولت في نقاش مطروح منذ عدة سنوات من أجل تحسين أوضاع النزلاء في مراكز الإيواء خاصة المهاجرين الذين اصبحوا الآن شيوخا و ليس لهم مكان آخر يأوون إليه بدأت شيئا فشيئا الهيئات المسيرة تتشارك في تكاثف الجهود من أجل التغيير. فلوقت طويل لم تكن فكرة إعتماد المراكز التقليدية كمساكن دائمة متوقعة مع أن هذه الفكرة هي من أول الحلول التي يمكن التوجه لها واعتمادها لكي يظهر ويعترف بحقوق هؤلاء النزلاء المهاجرين الشيوخ.

التحولات التي طرأت على مراكز الايواء:

تعرف مراكز الإيواء (Foyers) في الوقت الحالي بفرنسا مرحلة تحوّل وهذه السياسة راجعة للوضعية المزرية التي آلت إليها هذه الأخيرة بعد ابتعادها شيئا فشيئا عن وظيفتها الأساسية التي أوجدت لها أصلا ، ففي بادئ الأمر أنشأت المراكز لإيواء العمال الأجانب بصفة مؤقتة ، و بعد مرور قترة لا تقل عن أربعين سنة تغيّر الوضع في يومنا هذا إذ تنوعت فئات العمال الساكنين بها فنجد جزء لا يستهان به يشيخ ويكبر في هذه المراكز وبالتالي نلاحظ أن احتياجاتهم تتطور وتتغير بتغير حالاتهم ووضعياتهم ،هذا ما توصلت إليه وإستخلصته من

خلال الدراسة الميدانية والاستجوابات التي قمت بها في بعض مراكز السوناكوطرا[1]* والأدوما (Adoma) بفرنسا حيث أكدت شهادات الشيوخ المهاجرين صحة ما يقال و ينشر في المجلات و الصحف حول الوضعية المتدنية التي يعيشها هذا المهاجر المتقاعد، فمثلا قال لي أحد المبحوثين: عمي *دوادي 87 سنة:" واش أنقولك يا بنتي حياتنا وأحنا نخدموا، ملي نعقل على روحي فالتامارا جيت لفرنسا صغيرو أنا عندي 16 سنة حرثوا عليا حتى أكملت، ودروك راني عايش بـune pension misérable وحدي لافامي في البلاد.. "* في نفس المعنى يقول المبحوث : عمي الساسي75سنة: "*حياتي وانا نخدم باش نعيّش فاميلتي في البلاد وكي كبرت لقيت روحي وحدي هنا في الميزيرية، الصحة رايحة الفايدة ما تشكريش ماهي حالة رانا عايشينها... " وايضا المبحوث:عمي الربيع76سنة" جيت لفرنسا صغير خدمت في batiment وفي لوزين l'usine تومرت حتى مابقاش الجهد واليوم رانا ندمرو في ليام بهذ لبانسيو la pension الميتة، عايش وحدك فاميلتك في لبلاد واشي مكان حالة رانا عايشينها"*

العيش وحيدا هو متغير لازم ولا يزال يلازم مسار عدد لا يستهان به من المهاجرين الموجودين بفرنسا، إن كان بعضهم اختار هذه الوحدة إلا أن السواد الأعظم منهم أجبروا عليها ،فانطلاقا من إجابات المبحوثين في مراكز الإيواء توضح لنا بشكل جلي المعاناة التي يعيشها هؤلاء يوميا ،من خلال تعبيرهم عن غياب الزوجة والأولاد الباقين في الجزائر والصعوبة التي يعاني منها بالبقاء بفرنسا بعيدا عن أهله وذويه. هذه المعاناة لا تنطبق على كل المهاجرين المتقاعدين في حظيرة الإيواء سواءًا الكلاسيكي أو المختلط (Parc classique et diffus) بل خاصة وظاهرة بشكل كبير في مراكز الإيواء.كما يتشارك المهاجرون النزلاء بهذه المراكز في مستوى حياتهم سواء قبل الهجرة وأيضا بعدها فالمهاجر العامل أو المتقاعد غير مؤهل أي ليس حاملا لأي شهادة سواءً دراسية أو مهنية ومع تقدمهم في السن نجدهم أكثر عرضة للتدني والانخفاض على كل الأصعدة من المستوى المعيشي و الصحي و الاجتماعي...إلخ.

بالرغم من هذا فهم متمسكون بالبقاء بفرنسا بحكم التعود عليها فنجدهم لا يفكرون في العودة النهائية للجزائر لعدة أسباب منها الشخصية و المادية فالصحية...إلخ فهم يشيخون ويكبرون داخل جدران المراكز. هذا ما يفسر الوتيرة البطيئة لتجدد النزلاء بالمراكز مقارنة مع أشكال الإيواء الأخرى بفرنسا وهو ما يوضحه الجدول رقم 2 التالي : الذي يبين نسبة النزلاء بمراكز السوناكوطرا حسب متغير السن.

Tableau2 : Comparaison de la structure par âge des résidents de la Sonacotra entre 1973 et 1993, en%

Classe d'âge	1973	1993	Taux de croissance(%)
Moins de 30	48	21,5	−55,2
30−40	32	14,4	−55

[1] لتفاصيل اكثر انظر للفقرة الخاصة بالهامش.

Plus de 40	20	64,1	+220,5

جدول 2 _Source: SONACOTRA, Rapport du groupe de projet sur le vieillissement, Janvier 1997 (Tom CHARBIT, 1998:9)

توضح نتائج الجدول أن تجدد و تغير النزلاء بالمراكز لمدة عشرون سنة من 1973الى1993 يتصف بالبطء ما تعبر عنه نسبة تزايد المهاجرين الذين يفوق سنهم الاربعون سنة المقدرة في الجدول بالنسبة المئوية:+220.5 تعني أن المهاجرين الساكنين بمراكز السوناكوطرا لم يغيروا السكن منذ إلتحاقهم بها فهم يشيخون بين جدرانها مقابل تناقص في الفئة العمرية الأقل من ثلاثون سنة الى اربعون سنة بنسبة نمو مقدرة ب−55.2 و−55 بالمائة .

تحويل مراكز الايواء الى اقامات اجتماعية:

في الوقت الحالي نجد أن التوصيات لتحسين اوضاع الواقع المعاش بمراكز الإيواء التقليدية و التحوّل الحاصل لهذه المراكز يحمل في طياته نوع من التفاؤل للتغيير الفعلي للأوضاع ،وإعطاء المهاجر مكانته الحقيقية فهذه السياسة تهدف إلى القضاء على مراكز إيواء العمال الأجانب FTM وذلك من خلال تحويلها إلى إقامات
إجتماعية لتصبح أولا مفتوحة لفئات أكثر وثانيا تساهم في مناهضة وشجب التمييز على مستوى مراكز الإيواء المتواجدة. هذا التوجه في الاهتمام الجديد يأخذ بعين الإعتبار مميزات والخصوصيات المترتبة عن شيخوخة النزلاء وذلك من خلال مثلا إمكانية حصوله لمتابعة صحية و التمتع بنوع من الرفاهية...إلخ أي اهتمام خاص بالحياة الاجتماعية للمهاجر المتقاعد المسن. وبحكم الفترة الطويلة التي عاشها المهاجر المتقاعد بين جدران مراكز الإيواء نجده قد بنى

علاقات مع النزلاء الآخر ين سواءًا أكانوا متقاعدين أم لازالوا عمّالاً نشطين.أو بمعنى اوضح عن حقيقة عالمه الخاص به و الذي لا يعرف سواه فيه كل عوالمه المألوفة. فالحياة الاجتماعية مهمة جدا خاصة بعدما يحال الشخص الى التقاعد هذه المرحلة الإنتقالية من الحياة النشطة إلى حياة التقاعد ليست بالسهلة للجميع فما بالك بالرجل المهاجر الذي يعيش في ديار الغربة وحيدا منعزلا ، بالإضافة لصعوبات وخصوصيات الشيخوخة مع تداعياتهما. حسب ما قيل لنا إنهم ينتظرون بفارغ الصبر رجوع العمال النشطين إلى مراكز الإيواء في آخر النهار ليتشاركوا معا بعض الألعاب (كالألعاب الورقية أو الدومينو) ويتبادلون أطراف الحديث بمعنى أن الحياة تدبّ من جديد في المراكز مع عودتهم من العمل ما يوضح الفراغ و الرتابة التي يعاني منها المهاجر المتقاعد المسن رغم هذا نجده باقٍ هناك مكره على ذلك غير مخيّر.

بين تغيرات حتمية و ضروريات تقليدية:

إن تحويل هذه المراكز إلى إقامات اجتماعية هو فرصة لتحسين الوضع من جهة مع ضمان مستوى معين لحياة المهاجر الاجتماعية وتوفير قسط من الرفاهية واتساع المكان من جهة أخرى. لكن هذا التحول يلزم

المهاجر المتقاعد بنوع من القطيعة فعليه إما أن يترك المركز ويسكن في مكان آخر مؤقتا في انتظار انتهاء الأشغال أم البقاء فيه لفترة الأشغال وبذلك سينقطع عن تلك الجماعات التي كان يعيش معها فهي بمثابة معلم ثابت من بين معالم حياة المهاجر المتقاعد المسن .

الوصول إلى مستوى رفاهية أحسن لا يمكن أن يعوض خسارة الروابط الإجتماعية التي استغرقت حياة لتبنى بالإضافة إلى ذلك سيستقطب هذا السكن الإجتماعي فئات مختلفة تماما عن تلك المألوفة لديه فهم أكثر شبابا ، زيادة على إقحام العنصر النسوي في هذا السكن،و اللاجئين السياسيين...إلخ. هذا التنوع والاختلاف ممكن أن يطرح مشاكل جديدة. فأحذ الأخطار أن ترتّب هذه المراكز حسب منطق السبعينات (حسب منطق شمبردون ولومار Chamboredon et Lemaire) فيما يخص السكن الاجتماعي أي أنه في بادئ الأمر يتم إسكان الفئات المتجانسة في تجمعات كبيرة ما ترتب عن ذلك تفاقم وتعدد الصراعات و اللاتفاهم بتعدد واختلاف فئات السكان. بإمكان المهاجر المسن أن يتلقى مشكلة مع هذه الاختلافات في الجماعات خاصة أنه يعتبر في نهاية مشواره السكني مع أن الباقين هم فئات في مقتبل العمر.

ونظر للمقتضيات الإدارية و السياسية التي تقر تدابير انتقالية ناتجة عن خلفيات و قوانين في هذا المجال التي لا تتخذ من طرف السلطات والوزارات المكلفة بهذا المشكل ومن بينها مصير اليد العاملة التي جلبت دون توقع لبعض من عواقبها ،(ومنها التوقف عن العمل عند التقاعد) لا يمكننا الحسم في هذا المشكل الذي نتابعه عن كثب منذ سنوات يمكننا أن نختم الموضوع بما يلي:

أن المركز يتصف بكونه جماعي فهو بذلك يوفر رغم الوضعية المزرية نوع من الحماية الضرورية لهؤلاء النزلاء (المهاجرين المتقاعدين المسنين) حتى وإن كانت متدبدبة يعتبره المهاجر مسكنه الذي ليس له غيره إذ يظهر في هيكل المؤسسة وقدرتها على الاستقبال وبالتالي لوحظ إدراك الهيئات المسيرة لواجب الاهتمام بالاحتياجات الناتجة عن تقدم سن النزلاء وبكل بساطة إعلام موظفيها بالحالات الخاصة وتكوينهم لمواجهتها والتعامل معها بهذه الطريقة يتمكن موظفوها من التعرف بسهولة على تقهقر الوضع الصحي للنزيل في مرحلة مبكرة وهذا ما يسهل التعامل مع الوضعيته الصحية المتدنية و اتخاذ التدابير الملائمة للحالة هذه الطريقة لا يمكن أن تطبق في نمط إسكان آخر حتى وإن كان عدد هؤلاء الذين يعانون من نفس الاحتياجات لتقدمهم في السن ضئيلا ويبقى المشكل مطروحا على بساط النقاش.

الهوامش:

La Sonacotra (Société Nationale de Construction pour Travailleurs) est une société anonyme mixte, crée en 1956 par Décret du Ministère de l'intérieur. Elle est donc une entreprise de droit commun soumise au droit des sociétés (loi de 1966) et aux règles des entreprises nationales. En effet, l'état est son principale actionnaire, à hauteur de 57% de son capital social. Quatre ministères de tutelle sont représentés au sein de son conseil d'administration : Ministère de l'Emploie et de la solidarité, de l'Economie, des Finances et de l'Industrie, de l'Intérieur et enfin le Ministère de l'Equipement, du transport et du logement.

Le FASILD est un partenaire privilégié de la Sonacotra ; il intervient dans le financement du déficits des Foyers de travailleurs migrants, dans l'accompagnement social des résidant et dans l'aide transitoire au logement (AIL) étant donné que les résidences ne sont pas habilitées à l'aide au logement (APL). (Nadège B.2004 : Annexe 6).

قائمة المراجع:

دراسات أجنبية:

-Nadège BARTKOWIAK. « L'Accueil des immigrés vieillissants en institution application dans la résidence Manon Cormier DE GEGLES (33). Mémoire de l'école nationale de la santé publique, 2004.

-Rémi GALLOU. « Les immigrés isolés : la spécificité des résidants en Foyers, retraite et société», 2005/1 n°44, p106-147.

-Tom CHARBIT. « Le vieillissement des travailleurs immigrés logés en foyers ». Direction de la population et des migrations et l'Agence pour le développement des relations interculturelles», juillet 1998, Paris.

-Groupe reflex. « Les besoins des vieux travailleurs migrants habitant l'agglomération lyonnaise » ; notes de synthèses ;2008 .

- Groupe de travail présidé par Mm BLANDINE KREIGEL présidante de H.C.I « La condition sociale des travailleurs immigrés âgés ».

مراجع باللغة الأجنبية:

-Marc BERNARDOT. «Loger les immigrés.la Sonacotra 1956-2006» ; édition du croquant ;collection terra ;2008.

-Abdelmalek SAYAD. « la double absence.des illusions de l'émigré aux souffrances de l'immigré » ;éditon DU SEUIL .octobre 1999.

- Jean-Paul MARTHOZ. « Couvrir les migration » ; édition DE BOECK ;2011.